الضمير الفردى والضمير الاجتماعى

للأستاذ جريس القسوس

إذا جاز لنا العبث بعلوم الاجتماع والنفس والأخلاق استطعنا أن نقسم الضمير إلى نوعين : « ضمير فردى وضمير اجتماعى » ؛ ولا يتضح معنى ذلك إلا بكلمة سابقة فى تعريف الفضيلة والرذيلة اللتين هما قسطاسا الضمير ، بل مقرّرنا وجوده . إذ كيف يجوز أن يقال بأن نريد ضميراً حياً أو ضميراً ميتاً إذا لم يربط ذلك الضمير بفضائل أو برذائل ؟

لكل فئة أو جماعة أو طائفة من البشر قواعد وأنظمة وعادات جرت عليها وتمشت بموجبها عهوداً طويلة ، لا تحيد عنها قيد شعرة إلا بقوة جبارة عاتية تفوق قوة تلك الطائفة ؛ فإذا حادت جرت على الأنظمة الجديدة وتمسكت بها تمسك المستميت ، ودعمتها ودافعت عنها دفاعها عن النظم التى تحولت عنها فى بدء الأمر تحت تأثير القوة ، كفاندى مثلاً ، يحاول جهده أن يزحزح الطائفة المقدوسية عما جرت عليه من شعور سيئ نحو جماعة الأنجاس . وسبب تمسك أى طائفة بنوع خاص من التقليد أو العرف والعادة ، هو إدراكها بالتجربة والاختبار أن هذا النوع — دون غيره — يفيض على أكثرية مجموع أعضائها أجزل النعم وأتم البركات . . . نعمة وبركة يشترك فيها الفرد والجماعة معاً ، إلا فى حالات نادرة خاصة ، حيث تنتفع الجماعة من أمر لا ينتفع منه الفرد إن لم يكن يخسر

هذه التقاليد والعادات التى اختارتها الجماعة وأدركت نظرياً وعملياً أنها نافعة للأكثرية الساحقة من مجموع أفرادها نفعاً ينشى على أبصار أعضائها ، لا أفرادها ، فلا يرون فيها ضرّاً ولا شرّاً بل نفعاً وخيراً هى الفضيلة . أقول : أعضاؤها لا أفرادها ، لأن العضو يفكر ويقوم فى كثير من الأحيان بأمور لا تستند إلى العقل والمنطق تحت تأثير الجماعة التى لا تختلف فى عقليتها الاجتماعية عن عقلية الطفل . ويتجلى ذلك فى تصوير شكسبير الرفاع فى يوليوس قيصر ؛ فهم يفسقون ويندفعون كالصبيان اندفاعين متناقضين تارة تحت تأثير الـ — البيانى الذى يتدفق من لسان بروتس ، وتارة مأخوذين ببيان أنطونيوس وعباراته العاطفية الشديدة . لكن الفرد يستقل فى عقليته فى كثير من الأحيان ، فيقوم بأمور لا غبار عليها من حيث منطقها واستنادها إلى العقل

أما خروج الجماعة عن القواعد والأحكام فهو الرذيلة والإثم ، وعاقبته العذاب الأليم فى الدنيا وفى الآخرة . ولهذا لا يستغرب أن ترى فضيلة عند فئة رذيلة عند أخرى والعكس بالعكس — كمذهب العرى نعرفه رذيلة وعند أهله فضيلة

لكن هناك قواعد وأحكاماً وعادات أجمع العالم على الجرى عليها إجماعاً استقلالياً أو تقليدياً ، فهذه فضائل طبية كونية عرفت منذ انبثاق الخليقة أنها فضائل كالصدق والعدل والتواضع والإحسان . هذه الفضائل كما شرحتها ترتسم فى نفس الفرد وتنطبع فى ذهنه بالتقليد والتلقين ؛ ولا يورث منها إلا الميل لها ، لأن ما يكتسب لا يورث . فيجد المرء نفسه فى حظيرة الجماعة وتحت سلطتها وتأثيرها لا يستطيع أن يقوم بعمل مناف لما تمشت عليه ، أو يفكر أو يقول ما لا يروق فى نظر الجماعة ، ولا يشعر بالأثر السيء يحز فى نفسه . فالصوت الذى ينبعث من أعماق — يدعوه إلى تجنب الرذيلة ويدفعه إلى عمل الفضيلة قبل إتيانه ويقرن العمل بالتشجيع على الإتمام ويلحقه بالطمأنينة واللذة النفسية — هذا الصوت هو ما نسميه بالضمير — الضمير الاجتماعى لأنه ليس إلا صدى لجلجلة القيود والأصفاد التى ترسف بها الجماعة . ويصح أن نسمى ما يقابل هذه القوة من قوة عنيفة مضادة سكبت فى النفس البشرية مع القوة الأخرى

ورافقتها فى الحياة جنباً إلى جنب : هذه القوة يصح أن تسمى بالوسواس ، وهو المذكور فى قول الله تعالى : « قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس »

هذا هو الضمير الاجتماعى - بل هذا هو الضمير المطلق كما نعرفه عادة وتعرفه جمهرة العلماء ؛ لكننى عرفته بالاجتماعى على اعتبار وجود ضمير آخر غير هذا الضمير ؛ وهو الذى اصطلحت على تسميته بالضمير الفردى المطلق ، ذلك لأن الفرد قد لا يرتبط ارتباطاً عقلياً حراً مجرداً بما ترتبط به الجماعة من خير أو شر ، فيستوى عنده خيرها وشرها ، رذيلتها وفضيلتها ، ويصبح طليقاً من هذه القيود الاجتماعية ، لا يتأثر بما تتأثر به الجماعة من جميل أو قبيح تأثيراً تقليدياً غير منطق . لأنه لم يتهيأ لبشر من الناس أن يميز الحدّ الفاصل بين الخير المطلق والشر المطلق غير الأنبياء . هذا الفرد — إن وُجد — عرفته الجماعة بميت الضمير — من حيث علاقته بها . وما كان فى الحقيقة إلا حىّ الضمير — ذلك الضمير الروحى المستقل الذى قرّ فى نفسه وركب فى طبعه منذ أن عرف الحياة . وهو لا يختلف عن الضمير الاجتماعى من حيث أنه قوة مؤنبة ، خفية عميقة فى النفس . إلا أن إدراكاته تختلف فى كثير من الأحيان عن إدراكات الضمير الاجتماعى فى أنها أرهف وأبعد وأدق وأصل . ذاك يقاس بفضائل خارجة عن النفس فرضت عليها فرضاً ، فأصبحت كأنها جزء منها ؛ ولكن مدركات الضمير الفردى من جمال وبرّ وصلاح خلقت مع الإنسان منذ الأزل ، إلا أنها مطموسة بالمادة . فبذرة هذا الضمير الفردى فى كل نفس ، فإذا زاولها الفرد بالرياضة العنيفة ، وتعهدها بالصقل والتهذيب والتجريد ، جلى عنها الأصداء ، وأزال كل ما علق بها من أقذار المادة ، نمت وازدهرت وجاءت بثمار روحية سامية ، واستطاعت إذ ذاك التحليق فى غير جوّ المرئيات الحيوليات . وبذا يصبح هذا الضمير الفردى المطلق بمثابة ذوق مهذب راق ، تقاس به الأعمال والأطوار ، ويدرك بالفطرة السامية والضمير الإلهى ما هو خير وما هو شرّ . وصاحب هذا الضمير فوق أصحاب الضمير الاجتماعى أو الإحساس التقليدى المزيف ، فهو يعرف الله مباشرة ، ولكن أولئك لا يعرفونه إلا بالواسطة .

(شرق الأردن) مريس القوسى

اضمحلال القوى

ان الأعصاب المحطمة تسبب الكآبة وانقباض النفس وتلاشى نشاط الرجولة قبل الأوان « مرهم النورستانيا الناسلية » ولكن بعد اجراء ابحاث علمية استغرقت مدى عدة سنين ، تمكن جناب العالم الاخصائى فى المسائل الناسلية الدكتور ماجنوس هيرشفلد فى ايجاد وسيلة فعالة لمكافحة هذا المرض وبعد الاختبار والتجربة الكافية يقدم للجمهور مستحضر : لوكوفيتيطس وهو اول مستحضر علمى يحتوى بكيفية مضمونة على الهرمون الحقيقى لتجديد الشباب بحالة ثابتة متعادلة ويعمل دائما تحت رقابة المعهد الرسمى للناسليات بمدينة برلين . اقرأ الكتيب العلمى « الحياة الجديدة » فهو معلمك كثيراً من الأمور التى قد تجهلها الى الآن عن الحياة الناسلية وترسل النسخة الانجليزية او الفرنسية منه مجاناً برسوم ذات خمسة الوان نظير ٥ والنسخة العربية ٣ جالانهور مين : صندوق بوستة ٢١٠٥ بمصر

اختراع ... زيادة الحاسية قابلة للشفاء بواسطة العلاج العلمى الحديث الذى اكتشفه العلامة ماجنوس هيرشفلد

مجانا اقطع هذا الكوبون وارسله الى صندوق بوستة ٢١٠٥ بمصر سترفق طابع بجميع طلبيات تحت رسل لك نسخة مجانا من كتاب الحياة الجديدة

(س . ت ٥٢٢٧)

١٧٠٩